الفصل الثالث
المرأة في بلاد الهند والسند

أما الفلسفة الدينية تجاه المرأة قد بلغت من الحِطَّة الشيء الكثير ، فكانوا ينظرون إلى المرأة على أنها مخلوق تنبع منه جميع الشرور في العالم ، وكانوا يعتقدون أنها لا تساوي الرجل أبداً ، ولا ترقى إلى مجرد الحلم بالتفكير بالمساواة ، وإن الرجل متميز عليها منذ الولادة وحتى الممات ، وقد أغرقت هـٰذه الفلسفة بتعاليم دينية فأصبحت فلسفة دينية لاهوتية ، ومن نصوصهم المقدسة ما يلي : (إن كواش تيري[1] حين أراد في البداية أن يخلق المرأة وجد أن مواد الخلق قد نفدت كلها في صياغة الرجل ولم يبقَ لديه من العناصر الصلبة بقية ، فإزاء هـٰذه المشكلة طفق يخلق المرأة من القصاصات والمهملات التي تناثرت من عمليات الخلق السابقة)[2] .

عندما ترى هـٰذه الأساطير الخرافية التي يضحك من سماعها السامع ملء بطنه ، تجد النعمة العظيمة والكبيرة التي أسداها الله على أمة محمد ﷺ بإرساله خاتم النبيين والرسل ، وتجد أن الديانات الأخرى تعج بخرافات وسخافات لا قيمة لها يتقيأ العقل البشري عليها احتقاراً واستهزاءً ، فكلامهم بأن الخالق الذي يدَّعون أنه يمتلك قطعاً صلبة استطاع من خلالها أن يخلق البشر وبدأ بخلق الرجال ، ثم افتقر هـٰذا الإله فلم يعد يمتلك العناصر الأولية التي يخلق منها النساء فاستعان بالمهملات والقصاصات المتبقية عنده! إنما هو كلام تافه ساقط ، وهل يكون الخالق خالقاً! وهل يكون الإله إلهاً! إذا وُسِمَ بالعجز ولو للحظةٍ واحدةٍ! وكيف يكون إلهاً وعاجزاً بوقتٍ واحدٍ! وكيف يكون إلهاً عادلاً

---

(١) هو المبدع الإلهي.

(٢) ديورانت ويل ـ م س ـ ج٣ ـ م١ ـ ص : ١٧٨ .

وهو يميز بين رجلٍ وامرأةٍ وغني وفقير! إن هـٰذه العقائد الهندوسية الساقطة كثيرة الإشكاليات وإن العقل البشري ليبرأ منها.

ونحن نعلم أنه قد قسمت المجتمعات الهندية حسب العقائد الدينية الهندية السائدة، ولا سيما البرهمية والبوذية ـ إلى طبقات متعددة، وإن أبناء الطبقة الأولى هم الكهنة والملوك والأمراء، وأما الطبقة الثانية فتشمل التجار ومتوسطي الدخل، وأما الثالثة فتشمل جميع ما تبقى، ويعتبر من الآثام الكبيرة والأخطار الوبيلة أن يقوم رجل أو امرأة من الطبقات الفقيرة بمجرد لمس أحد من الطبقات العليا، فإنه يعتبر في ذلك قد ارتكب كبيرة من الكبائر لا يستهان بها، فالمرأة حسب مفاهيمهم رمز للغواية وعنوان للشر ومصدر للتدنيس، وذلك يتضمن ظلماً كبيراً للمرأة.

ويكون الظلم شديداً عندما تأتي هـٰذه المفاهيم على شكل تعاليم دينية، فمن المقبول أن يظلم البشر بعضهم بعضاً، ولكن ليس من المنطقي أن يظلم الخالق عباده، وفي هـٰذه الحالة تكون هـٰذه الأفكار حقائق يتربى عليها الصغار ويشبون ويشيبون عليها، وهنا تكمن الخطورة لأن كل شيء في هـٰذا الوجود خاضعٌ للحوار والنقاش إلا الأمور الدينية فإنها غير خاضعة للحوار والنقاش، هـٰذا الكلام يقال عن الهنود واليهود، وكل من ينتهج نهجهم.

أما في الشريعة الإسلامية السمحاء فترى أن كل شيء خاضعٌ للحوار والنقاش، فوجود الخالق على سبيل المثال ووحدانيته وصفاته بالإضافة إلى الموت والحياة والصراط والجنة والنار كل ذلك خاضع للحوار والنقاش مع الآخر، وقد أسس لذلك علم الكلام، فهو يخوض في هـٰذه الأمور، ولقد أثبتت الفلسفة الإسلامية أن العقائد الإسلامية يقينية وحقيقية تنسجم مع الحقيقة المطلقة، وقد خضع العقل لصفات ربه وحقيقة وجوده ساجداً ومعظماً، فلا تجد ذرةً واحدةً في العقيدة الإسلامية إلا ويصادق العقل على تصديقها بقناعةٍ علميةٍ ومنطقيةٍ تامة، فترى أن العقيدة الإسلامية مطهرة تماماً من جميع الخرافات التي تمتلئ بها التوراة والإنجيل وجميع الملل المشابهة التي نالت منها أيدي المحرفين بالكذب والتزوير والافتراء على الله عز وجل، فالنصرانية

واليهودية ديانان سماويان حقيقيان ، والأنبياء الذين بعثوا في هاتين الرسالتين مبجلون ومكرمون ومعظمون ولكن النقيصة توسم بهؤلاء الأتباع الذين لم يحافظوا على هـٰذه الأمانة فشتتوها وضيعوها ، ولا أستبعد أن تكون العقيدة الهندوسية أو المجوسية أو تلك العقائد المنتشرة في القارة الإفريقية لها أصول سماوية؛ لأن الله عز وجل لم يترك قوماً إلا وبعث فيهم نذيراً ، ولكن التشويه الذي أصاب هـٰذه العقائد هو نتيجة لتدخل العنصر البشري الفاسد الذي شوه هـٰذه الأمور الدينية السامية ، وأدخل عليها ما ينسجم مع أهوائه وشهواته وغرائزه فدنسها وجعلها مسخاً مشوهاً.

هـٰذا ما يقال عن توراة اليوم وإنجيل اليوم ، وهـٰذا ما يقال عن العقائد الهندوسية والبوذية والمجوسية وكل هـٰذه السلسلة ، فترى أن هؤلاء بإلصاقهم الخطيئة للمرأة ووسمها بها يمارسون تشويهاً للحقيقة ، وقد جاء في شريعة مانو: (إن مصدر العار هو المرأة ومصدر العناء في الجهاد هو المرأة ، ومصدر الوجود الدنيوي هو المرأة ، وإذن إياك والمرأة ، إن المرأة لا تقتصر خطورتها على تضليل الأحمق عن الطريق القويم في هـٰذه الحياة بل هي قادرة أيضاً على تضليل الحكيم)[1].

إن هـٰذه النظرة القاسية والمتشائمة للمرأة لم تقتصر على شريعة مانو فحسب ، بل إنها انتشرت معالمها في شريعة بوذا ، فترى أن جميع هـٰذه الملل قد اتحدت على شيء واحد هو ظلم المرأة وتحميلها مصائب الأرض بكاملها ، ولا تتفاجأ بأن هناك أقواماً قد تجاوزوا في تعديهم على المرأة فلم يقتصروا على تحميلها أسباب مصائب الأرض ، بل تجاوز بهم الأمر إلى تحميلها مصائب الكون بأسره ، وإذا سألت عن هؤلاء فاعلم أنهم اليهود ، الذين يحمِّلون حواء عليها السلام مسؤولية هبوط البشر إلى الأرض بعد إخراجهم من الجنة.

لقد اعتبر بوذا المرأة مصدراً للرذائل ونصح بالابتعاد عنها قدر الإمكان ، وسأنقل لك الآن حواراً مقدساً جرى بين بوذا وأحد طلابه ومريديه والذي يدعى أنانداً: (سأله تلميذه المقرب أنانداً ذات يوم: كيف ينبغي يا مولاي أن نسلك

---

(١) ديورانت ويل ـ م س ـ ج٣ ـ م١ ـ ص: ١٧٨.

إزاء النساء؟ فأجابه: وكأنك لم تكن رأيتهنَّ يا أناندا؟! فسأل: ولكن ماذا نصنع إذا تحتم علينا رؤيتهن؟ قال: لا تتحدث إليهنَّ يا أناندا ، فسأل: ولكن إذا تحدثن إلينا يا مولاي ماذا نصنع؟ فأجاب: كن منهنَّ على حذرٍ تام يا أناندا)[1] ، وقد حرمت بطبيعة الحال المرأة من حقوقها جميعاً مثل حقوقها في الأهلية وإنشاء عقد الزواج وما يتعلق بالميراث وفي شتى المجالات ، وقد جاء في شريعة مانو النص المقدس التالي: (ثلاثاً لا ميراث لهم في شريعة مانو المرأة والابن والعبد)[2] ، وليس من العجيب أن ظاهرة العهر قد انتشرت في الديانة البرهمية انتشاراً ساحقاً ، فغدا العهر يسري في مجتمعهم كما تسري النار في الهشيم ، وليس من الغرابة أيضاً أن تجد مواطن العهر في مراكز العبادة ، فتلاحظ أن المعابد مليئةٌ بالساقطات اللواتي ينقسمن بدورهنَّ إلى قسمين: منهنَّ من قصرن خدماتهن على الكهنة ويعتبرن أنفسهن يمارسن عملاً مقدساً يرضي السماء ، ومنهنَّ من وسَّعن خدماتهنَّ فشملنَ الكهنة وغير الكهنة وكل من يدفع أجراً لينال هٰذه المتعة ، ولكن هٰذه الخدمات العامة مشروطة بشرط وهو أن يأخذ رجل الدين ذلك العالم الفاضل والكاهن المبجل جزءاً من أجرة هٰذه الفتاة ، كي يكون العمل مباركاً ويرضى عنه الخالق ـ في زعمهم ـ وكانت النساء والرجال إذا أصابهم شيء من المرض أو الفاقة أو نوع من أنواع المشاكل المنتشرة في هٰذه الأرض يتقربون إلى خالقهم عن طريق تقديم ابنتهم أو إحدى نسائهم إلى المعبد لتكون عاهراً لهؤلاء الكهنة! يجدون في ذلك قربةً إلى الله (وأي قربة) كما أن المسلمين ـ مع فارق التشبيه ـ يقدمون الصدقات والزكوات للفقراء ليعينوهم لاستمرار حياتهم بشكل كريم.

يبرر هؤلاء الهنود تقديم بناتهم كعاهراتٍ إلى الكهنة لتحقيق ذات الهدف المقدس وهو التقرب إلى الخالق ، الخالق الذي يعتبرونه في عقيدتهم وثناً حجرياً ، والخالق الذي نعتبره في يقيننا وفي دمنا وفي عقيدتنا قيّوم السماوات والأرض عز وجل.

---

(١) المرجع السابق: ص: ٧٧.

(٢) المرجع السابق: ص: ١٩٧.